التجارة الداخلية والأسواق في المغرب القديم

عرف الإنسان التجارة لما عرف الملكية الخاصة، فبظهور الملكيات الخاصة سواء في الأدوات أو المنازل أو الأراضي، عندها ظهر التعامل التجاري الذي كان عن طريق المقايضة عند مختلف الشعوب البدائية، ومع ظهور الحكومات المركزية بدأ استخدام العملة التي كان يصكها الملوك والحكام.

أما عن المغرب القديم، فلم تكن التجارة مزدهرة في العصور القديمة نظرا لطبيعة حياة السكان القائمة على الاقتصاد الأسري (العائلي) والاكتفاء الذاتي ومحدودية مطالب السكان، لكن مع مرور الوقت وازداد عدد السكان وارتفاع المطالب التي لم تعد تنحصر في المواد الضرورية فبدأت التجارة تنشط.

أ/ التجارة الداخلية قبل الاحتلال الروماني:

ليست لنا معارف كبيرة حول أحوال التجارة الداخلية في المغرب القديم لعدم اهتمام المؤرخين اللاتين والإغريق سوى ما ينصب حول ما له علاقة بهم، ويصعب هنا الخوض في أحوال هذه المبادلات الداخلية التي تغلب عليها الفرضيات.

وزاد هذا التطور مع وصول الفينيقيين للمنطقة، حيث أسسوا إسكالات لهم على السواحل مثل ليكسوس، هيبون، روسيكاد، إيجيلجيلي، صالداي، إيكوزيوم... ، وتعاملوا مع السكان المحليين عن طريق المقايضة، فكانوا يأخذون منهم المواد الأولية كجلود الحيوانات وريش النعام وحتى الذهب والقطعان وأحيانا البشر من النساء، مقابل بعض المواد المصنعة الفينيقية كأدوات الزينة والمصنوعات الزجاجية، والجواهر الذهبية والفضية ، فمع الفينيقيين كان كل شيء يباع ويشترى. وقد تعامل الفينيقيون مع السكان المحليين بطريق مباشر ومع الوقت تكونت طبقة من تمازج الفينقيين مع بعض السكان المحليين الذين يتكلمون بلغة ممزوجة بين الفينيقية والمحلية عرفت بالبونيقية وهؤلاء السكان بالبونيقيين الذين طوروا الحضارة البونيقية التي كانت حاضرتها قرطاجة.

ومع قيام دولة قرطاجة ازدهرت التجارة الداخلية بين القبائل المحلية والقرطاجيين باستخدام المقايضة دوما رغم صك القرطاجيين لعملة خاصة بهم، وأهم ما كان القرطاجيون يأخذونه من السكان المحليين نجد الحيوانات بشكل عام الاليفة منها والمتوحشة، بالإضافة إلى

الفيلة، لكن لا نعل الكثير عن حجم هذه التبادلات ولا صيغتها ويمكن القول أنها كانت تتم بين القرطاجيين وبعض القبائل المحلية.

أما عن المبادلات بين المغاربة القدماء أنفسهم، فنحن نعلم مثلما سبق الحديث عنه أنهم كانوا على فئتين، مزارعين ورعاة وأن الإنتاج في كلال النمطين كان مزدهرا مما كوّن فائضا عن الحاجة، فالمزارع بعدما يخزن حاجياته السنوية من الحبوب والمنتجات الزراعية، كان عليه بيع الفائض، وكذلك الحال بالنسبة للرعاة مع وفرة المنتجات الحيوانية كالجلود والصوف، أما الحضر فكان عليهم تقديم المصنوعات اليدوية والأدوات، وبالتالي تجتمع الفئات الثلاث في أسواق خاصة أو عامة لتبادل السلع والمنتجات.

ولم يتوقف الحال عند التجارة الداخلية البرية، بل نجد عدة شواهد لمبادلات داخلية بين المدن الساحلية، حيث يتم تصريف منتجات وسلع من مراكزها الساحلية الكبرى عبر السفن إلى مدن نوميدية ساحلية أخرى، فتكشف لنا النقائش علاقات بين صالداي (بجاية) وإيول (شرشال) ، وبين إيول وقونوقو وأيضا طنجة وغيرها من المدن الكبرى.

ب/ التجارة الداخلية في ظل الاحتلال الروماني:

ازدهر النشاط التجاري أكثر مع الاحتلال الروماني بفضل توسع النشاط الزراعي والحرفي وارتفاع الإنتاج (وجود فائض إنتاجي) والنمو الديمغرافي وبروز مراكز حضارية كبرى تحتوي على كل المرافق الضرورية ومنها الأسواق وتوسع شبكة الطرقات وتأمينها نسبيا وهي التي سهلت حركة التجار والبضائع داخل المغرب القديم ومع الخارج، كما أدى بروز هذا النشاط إلى ظهور تجار وشركات تجارية وتنقسم التجارة إلى داخلية وأخرى خارجية.

ساعدت العوامل المذكورة آنفا على تنشيط التجارة الداخلية فقد كان التجار يتنقلون من منطقة إلى أخرى لعرض بضاعتهم التي تنوعت مع مرور الوقت وتغير الاحتياجات منها المواد الزراعية كالحبوب والخضر والمواد النباتية كالخشب والمعدنية كالملح والمواد المصنعة كالزيت والخمر والأسماك المصبرة، والثياب والأواني الفخارية، إضافة إلى العبيد وبصفة عامة كان سكان كل منطقة ينقلون منتجاتهم إلى الأسواق لبيعها أو مقايضتها مقابل ما يحتاجون إليه، فسكان السهول يعرضون المواد الزراعية وسكان السهوب المنتجات الحيوانية والحرفيين مصنوعات حرفية وبمعنى بسيط كان التجار إما مزارعين أو مربي ماشية أو سكان غابات.

ج/ وثيقة زرايا: ZARAI

المعلومات حول التجارة الداخلية قليلة جدا وتكاد تكون منعدمة، وافضل وثيقة وصلتنا عن ذلك هي وثيقة زارايا (Zarai) وتعرف بتعريفة زاريا وهي عبارة عن بلدة تقع على طريق محور نقاوس سطيف، قرب حدود نوميديا وموريطانيا، وبالتالي يقع مركزها في طريق القوافل بين طرابلس ونوميديا وموريطانيا القيصرية والمزاق، التي يعود تاريخها إلى سنة 202م وهي تشير إلى قائمة من المواد التي تخضع إلى ضريبة المرور والتي تعرف بالبورتوريومportorium ، فتعطينا فكرة عن المواد المتاجر بها، وهي: السمك المصبرGarum ، والاسفنج (الذي يأتي من خليج السيرت الأصغر)، والثياب الصوفية (المصنوعة في جربة)، والمواشي والجلود من زاراي ذاتها، والتمر من الواحات الجنوبية، وراتينج الصنوبريات من جبال الأوراس، والرقيق من لبدة... هذه السلع المختلفة تكون قد وصلت إلى زاراي عبر طريق داخلي يعبر من قابس إلى تيفيست – ماسكولا – لامبيز – لاماصبا، لتمر غربا نحو أسواق ومدن موريطانيا القيصرية.

د/ الأسواق في المغرب القديم:

كانت التجارة الداخلية تتم بأسواق مختلفة منتشرة بكل المغرب القديم فقد كان لكل قرية أو مدينة سوقا أو أكثر منها ما كان متخصصا ومنها ما هو عام،فنجد في الدولة القرطاجية والمناطق المحاذية لها انتشار أسواق يحتمل أنه كان من بينها أسواق أسبوعية، غير أن غالبيتها كانت تعقد في فصل الصيف، وقد عرفت هذه الأسواق تطورا في ظل الحكم الروماني إذ كانت إقامتها تخضع لعدة مقاييس وقوانين وبصفة عامة كانت تقام بالأماكن الحيوية قرب المدن وقرب الطرق الرئيسية والمراكز السكرية وقرب معابر الأودية.

وما هو الشأن عند الإغريق لم ينحصر نشاط السواق في المبادلات التجارية فقط بل كانت في نفس الوقت أماكن تلتقي فيها مختلف فئات المجتمع لمناقشة مختلف القضايا التي تهمهم، وأيضا لتزيع الأعمال الخيرية، كما كانت أحيانا مكانا لمظاهر سلبية كالرشوة والتهريب والمضاربة والغش وغيرها.

وكانت عملية إنشاء الأسواق تخضع لموافقة وترخيص من الإدارة الرومانية، وكانت الضرائب هي المصدر الرئيسي في تأسيس وصيانة الأسواق، ويشترك في بنائها أحيانا مواطني المدينة عبر تبرعات ، ويقع اختيار مواقعها قرب المدن والطرقات الرئيسية، وكذلك قرب المراكز العسكرية لعدة اعتبارات منها أن الجند يمثلون زبائن دائمين، وأيضا تكون تحت حماية الجند من أي خطر.

وتنقسم الأسواق إلى يومية – اسبوعية ودورية في شكل معارض كبرى، ورغم قلة الوثائق التي تلقي الضوء عليها، إلا أننا يمكن استنتاج عدة افتراضات حول ازدهارها ودورها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

1-الأسواق اليومية (Macellum)

تعقد هذه الأسواق كل يوم في الجهة الشرقية من الساحة العمومية (Forum) من المدينة، حيث تأجر فيها الدكاكين ليعرض فيها التجار بضاعتهم، حيث نرى أن الورشات كانت هي نفسها الدكاكين البيع، ومن أشهرها سوق تيمقاد الذي أقامه ماركوس بلوتيوس فاوستوس وزوجته في القرن الثاني ميلادي، وكان له مدخلان إلى حيث نجد ساحة فسيحة طوله 25 متر وعرضها 15 متر تتوسطها بركة مائية مربعة، وتطل على الساحة محلات السوق وعددها سبع في شكل نصف دائرة لتعرض سلعها على مصارف عبارة عن صفائح من الغرانيت، وكذلك الأمر في سوق جميلة الذي خصص لاحقا للأقمشة.

2-الأسواق الأسبوعية (Forum)

تقام مرة في الأسبوع في الساحة العمومية في مساحة مكشوفة (Area) محاطة بأعمدة ومنشآت عامة كمجلس القضاء والمعابد، وغالبا ما تحتوي على أكثر من طابق تضم محلات، يتردد عليها مزارعو وحرفيو المناطق المجاورة لبيع منتجاتهم واقتناء حاجاتهم وهي تنقسم إلى أسواق عامة (أسواق تبيع كل شيء) وأسواق متخصصة ببيع شيء واحد مثل سوق الماشية، سوق الخضر، سوق السمك وغيرها...الخ. / ولعلّ هذه الأسواق الأسبوعية كانت تحمل أسماء أيام انعقادها كما هو عليه الحال اليوم، كما أن المثير منها يمكن أن يكون قد ازدهر وتطور ليصبح أسواق موسمية كبرى، ويقول غزال أن أغلب المدن النوميدية كانت تقام بها الأسواق الأسبوعية، وازدهرت أكثر خلال الفترة الرومانية.

3-الأسواق الدورية : (Nondinae)

اسمها مشتق من فعل Nundinari ومعناه قام بالتجارة، ولا نعرف بالضبط متى تنعقد فالبعض يقول كل ستة أشهر وآخرون كل 15 يوم، أو 10 أيام، لكن المتفق عليه أنها دورية تعقد بأماكن يلتقي فيها سكان المدن والأرياف ليتبادلوا البضائع يتناقشون قضاياهم ويظهر أنها قديمة جدا نابعة من الوسط الاجتماعي المحلي، وبالتالي ليست تنظيما دخيلا، كما أن هذه الأسواق ومواقعها قد أخذت شهرة كبيرة وكثيرا ما كانت تتحول إلى قرى ومدن ، مثل مدينة باجة (سيكا)

التي كانت سوقا للحبوب لتوسطها إقليم إنتاج القمح، وسيرتا سوقا أساسية يرتاده معظم الناس من مختلف الأقاليم، وسوق جميلة المخصص للأقمشة، وتيفست كأكبر سوق للمواشي.

هـ- منشطي التجارة:

تعرفنا سابقا أن الحرفيون كانوا تجارا في نفس الوقت، حيث كانوا في البداية قبل الاحتلال الروماني من السكان الأصليين، ويصنفهم لنا غزال أنهم كانوا من الرعاة الذين يقدمون الماشية والمنتجات الحيوانية، او من الحضر الذين يمثلون الحرفيين والصناعيين الذين يقدمون الأدوات المصنعة والأثاث وحتى الأسلحة، حيث يمارسون التجارة في دكاكين منتشرة من تونس إلى فاس، بالإضافة إلى المزارعين الذين يقدمون المنتجات الفلاحية من الحبوب خاصة، وإلى جانب كل هؤلاء نجد كبار التجار المحليين الذين يتمثلون في الملوك مثل ماسينيسا وميكيبسا ، وأيضا تجار أحانب مثلما تذكرهم بعض نقائش معبد الحفرة بقسنطينة ، وكانوا إغريق وقرطاجيين وإيطاليين يعملون بالتجارة الداخلية والتصدير على حد سواء.

لكن بعد دخول الرومان وهيمنتهم على قطاع الإنتاج الزراعي والحرفي همش الأهالي وأصبح دورهم ثانويا، فقد قامت روما بمنح امتيازات ضريبية لقدماء المحاربين الذين يمارسون التجارة مما جعل الأهالي يجدون منافسة لم يكونوا قادرين على مجابهتها، وكانوا من ضمنهم أصناف كتجار كبار، تجار مستقرون، متنقولون، أحرار وعبيد عتقاء، وهناك من كان يتعاطى التجارة الداخلية فقط، وآخرون بنوعيها الداخلية والخارجية. انضووا في نقابات وفق نفس التجارة. ويمكن تقسيمهم إلى فئتين:

= تجار محليون نوميديون ومور ومعمرون رومان : حيث تعاطى التجارة مختلف الفئات من حرفيين وريفيين والرعاة، وبعد القرن الثالث ميلادي بحصول جزء من المحليين على حقوق المواطنة الرومانية أصبح يحق لهم ممارسة التجارة على نطاق واسع داخل المقاطعات الرومانية بالمغرب وخارجها.

أما المستوطنون الرومان فقد احتكروا في البداية تجارة عدة مواد رائجة بالمقاطعات الرومانية، وتفوقوا في أعدادهم على مجموع التجار النوميد والمور والأجانب، وانقسموا لتجار صغار (أي تجار التجزئة) ممن كانو يسوقون منتجات أرتضبهم أو حرفهم كالدواجن والفخار. أما التجار الكبار فتمثلوا في الطبقة الرومانية الراقية بداية من الإمبراطور وطبقة الفرسان وأعضاء مجلس

الشيوخ وحتى رجال الدين ممن أغرتهم أرباح التجارة، وعملوا بتجارة الجملة لمواد محددة كالحبوب والخمر والزيت.

= تجار أجانب من إغريق وغاليون وإسبان وشرقيون وغيرهم : وجودوا بالمغرب القديم قبل الاحتلال الروماني، وتشير المعطيات أنهم قدموا للبلاد ضمن الجيوش الرومانية، وبعد انتهاء خدمتهم استقروا بها وتحولوا إلى تجار، وانتشروا بعدة مدن رئيسية مثل سكيكدة وقسنطينة وتيمقاد وغيرها.